

(١) نَظَرَاتٌ فِي شِعْرِ الْأَخْرَسِ

الدكتورة هائلة المزرجي

لقد كان شعر الأخرس موضع اهتمام النقد ومحل عنايته منذ أن عرف الشاعر وذاع شعره في الناس وحسبك أن تعلم أن صاحب « المسك الأذفر » العلامة الألوسي يرى فيه :

« النهاية في رقة الشعر ولطافته وحلاوته وعذوبته » بل انه يمضي في اعجابه به الى أبعد من ذلك فيرى في الأخرس :

« خاتمة الشعراء ونهاية الأدباء جعل المعاني البيض عبيداً لسمر أقلامه وكان له في التغزل مجال أعجز فيه فحول الأدباء » (٢) .

ويعده جرجي زيدان « من نوابغ شعراء العصر » (٣)

ويرى فيه عباس الغزاوي انه « مالك ناحية الأدب في الشعر والنثر » (٤)

ويعتبره الزركلي من « فحول المتأخرين » (٥)

أما استاذنا المرحوم الدكتور محمد مهدي البصير فيرى فيه أنه :

« شاعر ظريف يشبه أبا نؤاس » (٦) .

(١) عبد الغفار بن السيد عبد الواحد المولود بالموصل ١٢٢٠هـ / ١٨٠٥م والمتوفى بالبصرة

١٢٩٠-١٨٧٣

(٢) المسك الأذفر . (٣) مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر : ٢٨٩

(٤) مجموعة عبد الغفار الأخرس ص : ٦ (٥) الاعلام ط ٢ مجلد ٤ : ١٥٧ .

(٦) نهضة العراق الأدبية في القرن التاسع عشر .

ونحن نثبت هذه الآراء لندلل على ما أثاره هذه الشعر من عناية نقدة الأدب به وإن يكن لنا في بعضها نظر .

ولعلك سائل إيتاي بعد ذلك ما خصائص هذا الشعر الذي حظي من رجال الأدب هذه الحظوة وتبوا من نقدة البيان مكان الصدارة ؟ أتراه جديراً بها أم انها العاطفة والاندفاع في الثناء الى غير غاية ؟ .

وللجواب على ذلك نقول لك انه في بعض خصائص هذا الشعر ما يدفع الناقد الى الوقوف عنده والاعجاب به والإكبار لصاحبه ، والحق ان الأخرس عندنا فجر النهضة في الشعر العراقي بعد ليل طويل من الركود عانى فيه الشعر ما عانى من التخبط في الضلال . . .

والأخرس . عندنا في العراق كالبارودي في مصر : نهاية ظلام وبدء نور ، فهو جسر وطيد البناء قوي الدعائم استمدّ أعمدته من التراث الأصيل في أزهى عصوره وأروع صوره بل هو همزة الوصل بين تالذنا المخلد وطريفنا المجدد والشرارة الاولى ليوهَج النهضة الحديثة التي تمخضت فيما بعد عن عبد المحسن الكاظمي ومعروف الرصافي ومحمد رضا الشيباني وسواهم من عمالقة الشعر العراقي الحديث .

واهم ما يمتاز به هذا الشعر في بعضه أنه يجتري الموسيقى وربما الديباجة ، فقد حفل بالمطابقات والمقابلات التي حفل بهما شعر البحري من قبل ، الى جناس عذب مستملح ، وتقسيمات معجبة كتقسيمات إقليدس . . . وفي بعضه الآخر قد يسيطر الجو البدوي فاذا الوشائج قائمة بينه وبين الصحراء فانت تقرأ اثناء هذا الشعر « الوجيف » و « الذميل » و « النوق » و « العيس » بل انك لتشم من انفاسه « الشيخ » و « الحزامي » و « الثمام » وهذا لعمري أثر صريح من آثار الشعر القديم في شعر شاعرنا الأخرس ، وقد نخرج من ذلك أن شعر الشاعر قد جمع بين الجزالة البدوية والركة العباسية بل هو مزيج من هذا وذاك ولا عجب من بعد أن قال العلامة الألوسي في اسلوبه انه :

« النهاية في الرقة واللطافة والحلاوة والعذوبة » .

ولعل أشد ما يبهرك منه رقائق معانيه وحلاوة صورته في جمال تشبيهاته فقد استجمع الحسن من أطرافه وواتته الجزالة من مظانها .

ويبدو لي ان المثل الأعلى الذي اقتفى الأخرس أثره ووضعهُ أبداً نصب عينيه في متانة الديباجة وشدة الأسر هو الشريف الرضي ولا أحد سواه ولنا على ذلك ألف دليل ودليل نواتيك بها إن شئت جميعاً بعد قليل .

أما رقائق معانيه وحلاوة تشبيهاته فحدث عنها ولا حرج ، إلا انها لا تخرج في مجموعها عن كونها ترداداً لما ثورماورد منها في تأريخ شعرنا العربي على توالي عصوره والديوان الضخم يزخر بها من الفه الى يائه ويكون بذلك الأخرس سلفي الروح والصور ، هذا الى رصانة وإحكام في قوافيه بارعين يدفعانك الى الإعجاب والدهشة ويذكر انك بتلميذه الاول شاعرنا الكبير معروف الرصافي ، ولا تعجب من بعد لشاعر دانت له القوافي وطاوعه البيان أن يكون طويل النفس مكثراً في قول الشعر إكثاراً دفعه الى الزهد به وعدم العناية بجمعه ولولا ان قيض الله لهذا الشعر من يعنى به (١) بعد موت صاحبه لما كان للأخرس ديوان بين الشعراء ولحسر الشعر العراقي بذلك كثراً من كنوزه !

وقد كان من جراء إكثار الأخرس وطول نفسه تكرار للمعاني أو إسفاف في بعضها وهذه نتيجة حتمية لشاعر ربما بلغت بعض قصائده المئتي بيت كقصورته في مدح محمود الآلوسي إذ لم تخل هذه القصيدة من ثرية مستهجنة ورتابة مملّة وهي بطولها تذكرنا بتائية ابن الفارض الكبرى ، ومن ثريته النابية في قصيدته هذه قوله :
فسعرت من حرّ أنفاسي بها لظى أذاب حرّه شحم الكلى

(١) جمع الديوان بعد وفاة الشاعر أحمد عزة الفاروقي وسماه الطراز الانفس في شعر الأخرس وطبعه بمطبعة الجوائب سنة ١٣٠٤-١٨٨٦ باستانبول وقد عثر المرحوم عباس الغزاوي على قصائد عديدة وقطع مهمة فانت جامع الديوان . انظر مجموعة الأخرس للغزاوي ص ٦ .

وقوله :

لما عليه عُرِضَتْ أَسْئَلَةٌ وَرَدَّهَا إِلَى مَعَالِيهِ أَتَى
لِاسْتِفِيدِ النَّاسِ مِنْ عُلُومِهِ وَيَهْتَدَى فِيهِ وَفِيهِ يُقْتَدَى
ومن هنا كان التفاوت بيننا في شعر الأخرس ، فبينما هو يعلو في كلامه علواً
يجعلنا نؤمن إيماناً لا يقبل الشكّ بتلمذته على الشريف الرضيّ وفصحاء البدو في
متانة الديباجة وشدة الأسر وتلمذته على أبي عبادة البحري في روعة الموسيقى
وسحر الجرس إذا به يَسْفُ اسفافاً يدينه من الثرية بل العامية المسترذلة أو يكاد . .
والأخرس كالبارودي تماماً : مرآة صافية يتراءى فيها أثر الشعر العربي الاصيل
من جميع جهاتها فبينما تقرأ فيها أثر الخطيئة (١) وربما جرير (٢) اذا بك تلاحظ

(١) الأخرس :

دامي العيون على أُصْبِيَّة سود الحظوظ وأوجه غُر
وَيَخَاطِبُ زَوْجَهُ :
وَبَنُوكَ يَوْمَئِذٍ بِمَسْغَبَةٍ خُمَصُ الْبَطُونِ حَوَانِي الظَّهْرِ
صُفْرٌ يَسْوُوكَ مَا عَرَفْتَ بِهِمْ مِنْ شَوْمٍ وَقَعَ حَوَادِثُ غُبْرِ
إن هذه الأبيات تذكر بآيات الخطيئة المشهورة في استعطاف الخليفة
عمر (رض) :

ماذا تقول لافراخ بذي مرخ زغب الحواصل لآماء ولا شجر
(٢) الأخرس د : ٧٦

لدى قوم أعزّ الناس جارا واندى بالنوال بطون راح
وجرير صاحب البيت المشهور في المدح
الستم خير من ركب المطايا واندى العالمين بطون راح
الأخرس :

وصرت في حال من لا يبتغي بدلا بالاهل اهلا وبالجيران جيرانا
يذكر بقصيدة جرير المشهورة :
يا أمّ عثمان إنّ الحب عن عَرَض يُصْبِي الْحَلِيمَ وَيُبْكِي الْعَيْنَ أَحْيَانَا

روح أبي نؤاس (١) وربما لحظت في هذا الشعر اثرًا للمعري (٢)
وربما لأبي الطيب وقد يكون اثر هذين الاخيرين اقل من غيرهما مدى وأدنى
مرتبة :

إلا ان المثل الاعلى للشاعر الذي اقتفاه وحاول ان يت رسم خطاه هو الشريف
(١) الأخرس في ظرفه وخمرياته ومجاهرته بالعبث يذكر بأبي نؤاس :

تطوف علينا الكاس من كف اغيد	كما ذر قرن الناس في راحة البدر
تحدثنا عن نار كسرى لعهد	قديمة عهد بالمعاصير بالعصر
فحيّا بها أحوى من الغيد أبلج	مذاباً من الياقوت تبسم عن در
وقلت لساقها رويدك بالحشا	فقد زدني بالراح سكرًا على سكر
هنالك اعطينا الحلاعة حقها	وقمنا الى اللذات نعثر بالسكر
الى ان بدا للصبح خفق بنوده	وطار غراب الليل عن بيضة الفجر

وغير هذا كثير في ديوان الرجل نخص بالذكر منه صدر مدحته لسليمان
افندي: ٤٣ و صدر مدحته لتقيب البصرة محمد سعيد: ٦١ أما ظرفه النواصي فلا افصح
من هذه الايات في ترجمتها إذ كتب الى بعض احبابه يطلب منه صراحية شراب :

جميل الصنيع بأهل الادب	بقيت لنا في الهنا والطرب
اعندك علم بان الهموم	على خاطر المرء مثل الحرب
ولا من دواء لأدوائها	ولا براء منها كبنت العنب
واني فقير الى قهوة	ومن لي بها مثل ذوب الذهب
تقوي العظام وتشفي السقام	وتذهب عن شاريها النصب
صراحيتي ما بها قطرة	فقل عند ذلك يا للعجب
وانت ملكت نصاب الشراب	فأين الزكاة وهذا رجب ؟!

(٢) الأخرس : ٣٠٠

عفت ارسم من دار ميّ واطلال
وحالت، بها إذ خفّ قاطنها، الحال
المعري :

مغاني اللوى من شخصك اليوم اطلال

وفي النوم مغنى من خيالك محلال

الرضي قطعاً دون سواه في شرف المعنى وأسر الديباجة والبحري في حلاوة الموسيقى
وجرس القوافي وخفة الأوزان فهو إذن عندنا « رضي » الديباجة « بحري » النغم ...

* * *

وكما كانت قراءات الشاعر في التراث العربي الشعري ذات أثر بيّن في
ديوانه كذلك كان للقرآن الكريم أثر ملحوظ في شعره فهو يُحلّي قصائده بين
الفنية والفنية بالحمل القرآنية ليزيدها الاقتباس الى جمالها جلاله . . .

وانك ما تختار غير رضائه كمن راح يختار الضلال على الهدى

سعى الى الفضل فنال ما ابتغى وليس للانسان إلا ما سعى

اقسم بالربّ العظيم شانه ومن على العرش تجلّى واستوى

وكما حلّى الشاعر بالحمل القرآنية بعض شعره فقد حلّى بالامثال العربية بعضه

الآخر :

مقالة المنصف فيك جهرة لاشك كل الصيد في جوف الفرا

ولما رأيت اهتم جاز بي المدى الى ان رأيت السيل قد بلغ الزبى

يُهوّن لدغ العقربان بلدغه ولاشك بعض الشرا هون من بعض

فلما أجلت الطرف ادميت خده وأدمى فؤادي والجروح قصاص

أما التقسيم والمطابقة والمقابلة والجناس ورد الصدر على العجز وما اليها من أسباب
البدیع فهي أدواته الأخرى في توشية شعره وتنويف أثوابه وهي منبثة خلال الديوان
لاتكاد تخلو منها قصيدة . . .

تقسيم : بحيث الهوى غصّ ، وبرد شبابنا قشيب ، وعهد اللهو في زمن الصبا

طباق : فطوراً أراني في المشارق متهماً وطوراً أراني في المغارب منجداً

طباق : اذا زفها الساقى لِشَرَبٍ تبسمت به طربا حتى يعود مقطبا

جناس : كانت صليلا في الوغى وصهيلا

رد الصدر على العجز :

لعبتم فأرحتم بعدها أمماً كم راحة يجتنيها المرء من تعب

والك الآن أن تطالبني الدليل على صحة دعواي من أن الشريف الرضي كان قبلة
الشاعر ووجهة نظره أنى سار واذكر انني قلت لك اول الحديث إن لنا الف دليل
ودليل على صحة دعوانا هذه وهاكها الآن نسوقها لك دليلا دليلا :

اقرأ أولا همزيته في رثاء محمد جلبي زهير (١٦-١٨) التي اولها :

نؤمل ان يطول بنا الثواء ونطمع بالبقاء ولا بقاء
تر الشريف الرضي مجسداً في هيكله وروحه خلل هذه الهمزية ثم اقرأ مقطوعة
الأخرس البائية التي اولها : ٤٧

أحببتنا انتم على السخط والرضا وفي القلب منكم لوعة ووجيب
واقراً بعد ذلك بائية الشريف التي اولها (١٤١)

يقر بعيني ان ارى لك منزلاً بنعمان يزكو تربه ويطيب
ثم تقدم بعد ذلك قليلا في ديوان الأخرس وقف عن بائية اخرى : ٥٢ :

ويوم وقفنا دون اسنمة النقا	وقد كان يوم ياهذيم عصيبا
على طلل ظام الى ري أهله	تصب عليه الماقيان ذنوبا
ولما تلفتنا فلم نر أنجما	هنالك إلا قد غربن غروبا
وكل فؤاد من رفاقي وانقي	تطالب من تلك الرسوم حيبا
وقد رد طرف الركب بعد طموحه	حسيرا وقلب المغرمين كئيبا
شققن عليهن القلوب تأسفا	إذا ماشقن الثاكلات جيوبا
وقد اخذت منا الديار نصيبها	من الدمع والجفن القريح نصيبا
وحتت نياق الركب حتى وجدتني	وجدت لها تحت الضلوع لهيبا
ولم أدر يوم الجزع في ذلك الحمى	فقدن حيبا ام فقدن قلوبا

تلاحظ في هذه المقطوعة اثراً من اثار الشريف يبدو في النفس تارة وفي الألفاظ

واسماء المواضع أخرى :

« حنت نياق »

« يوم الجزع »

« اسنمة النقا »

ثم تقدم معي خطوة اخرى في الصفحة ٧٣ من الديوان تطالعك الحائية

نبهت الورقاء ذات الجناح من غفلة الصحو الى شرب راح
فتقفز في الحال امام ناظريك حائية الشريف :

نبهتهم مثل عوالي الرماح الى الوغى قبل بزوغ الصباح (١)
وربما نقل التلميذ عن الأستاذ لفظة لفظة وما يدري . . . !
انه الاعجاب والتلمذ على استاذ تنقل عنه وما بك ذلك . . .
يقول الآخرس :

قد كان يرجو ان يلم ببرئه لو ان طيفك كان من عُوّاده
والشريف يقول :

اهون بما حملتنيه من الضنى لو ان طيفك كان من عُوّادي
ويقول الآخرس :

وعجنا العيس عن نجد حثيثا وَخَلَفْنَا وراء العيس نجدا
ويقول الشريف :

وعجنا العيس توسعنا حيننا تغنيا ونوسعها بكاء
وقد تجاوز الآخرس تقليد استاذة في الدباجة واللفظ الى اصطناع بعض اغراضه
كالغزل العذري مقتفياً اثر الحجازيات .
اقرأ كذلك الرائية التي اولها :

رمى ولم يرم عن قوس ولا وتر بما بعينه من غنج ومن حور
ص ٢١٣ فهي نفحة أخرى من نفحات الشريف
في الروح واللفظ وحتى المواضع . . . ! كنى والمحصب والخيف
يقول الآخرس :

تهيم بأعلام المحصب من منى وآفة نفس المستهام هواها
وتقدم بعد ذلك معي في الديوان لتقرأ على الصفحة ١١٠ منه القصيدة التي اولها :
لمن أنيق ياسعد ترقل أو تخدي تغور في غور وتنجد في نجد
حوان كأمثال القسي سهامها اعاريب ترمي بالسرى غرض القصد
وامض بها حتى تاتي على نسيبها كله واقرأها مستأنياً متمهلاً ثم قف بعد ذلك
لتقرر معي انها امتداد للحجازيات في الروح والسفس واللغة جميعاً .

وهكذا تقف بين الفنية والفنية—على رَوْح من انفاس «الشريف» تنفح به قصائد
الأخرس خلل ديوانه ، والامر كذلك في الديباجة والوشي البحترين يطالعانك من
حين لحين حتى انه ليخيل اليك أن البحترى قد بعث من جديد اثناء ماتقرأ للأخرس
من روائع الشعر :

الأخرس : زيد لوماً فزاد في الحب وجدا
البحترى : لي حبيبٌ قد لج في الهجر جدا
القصيدتان من منبع واحد . . .

ثم اقرأ للأخرس :

أتذكر اطلاقاً تعفّت وأرسما بذات الغضا في الجزع من أيمن الحمى
تجد أنها بحتريّة الوشي والنفس .

وموسيقى الأخرس ، إذ يشاء ، خفيفة طروب فيها انتقاء للبحر والقافية واللفظ توائم
الغرض الذي سيقّت من أجله . اقرأ قصيدته في التهنئة التي اولها :

أعِدِ اللهو فأن العودَ أحمدُ وأدِرَها في بُلجينِ الكأسِ عَسْجَدُ
وسواها كثير، تجدها كلّها شواهد صدق على مانقول لك من أمر موسيقاه وهكذا
جمع الأخرس بين نسج الشريف ووشي الوليد فضمن لشعره النفاسة من اطرافها
جميعاً لولا انه فوت على نفسه فرصة الاستقلال والخروج على الناس بما فيه ابداع
وجدة وابتعاد عن سمة الاقتناء والتقليد أيا كانت درجة هذا الاقتناء من الروعة
والسمو . . .

ولعل أشد ما يبهرك في الأخرس رقائق معانيه وحلاوة تشبيهاته ولعلهما كانا اهم
اسباب شهرته ونجاحه في التغلغل الى نفوس ممدوحيه على اختلاف طبقاتهم الفكرية
والاجتماعية ، ولعمري أي رقة هذه التي تملي على الشاعر مثل هذا البيت في
وصف كريم ؟

ويميل من كرم الطباع كأنما شربت شمائله المدام شمولاً
أوقوله :

رقت شمائلك اللائي ترق لنا حتى كأنك مخلوق نسيم صبا

أو قوله :

كريم فأما العيش في مثل ظله فرغد وأما ظله فظليل
أوصف لك مابه والمطايا من لهفة الشوق فيبدع اذ يقول :

حكّت بلسان الحال حتى وددتني أقبّل من تلك المطية فاهها
جوى مثل مابي اوزيريد بزعمها وهيها مني وجدها وعناها
وسار بها إذ ذاك في كل مهمه وليس الى غير العلاء سراها
وما راح الا وهو فيها سميرها شكته تباريح الجوى وشكاها
فقلت لها لا فاتك الورد صافياً ولا حبست منك السماء حياها
وما تراك تقول في مثل هذه الدرر في مدح ابي الثناء الالوسي ؟

وأبلج لولا شعره وجبينه لما كنت ادرى ما الضلال ولا الهدى
تدين قلوب العاشقين لحكمه على انه قد جار في الحكم واعتدى
فتى المجد يُفني بالمكارم ما له ويبقى له الذكر الجميل مُخلّداً
اذا فاض منه صدره ويمينه فخذ من كلا البحرين درأً منضداً
وما زال يسمو رفعة وتفضلاً ويجمع شمل الفضل حتى تفردا
ايطلب إلا من مفاخره العلى ويسأل إلا من اناملك الندى ؟
لك العز حار الواصفون بوصفه وجلت معاني ذاتها ان تحددا
اذا ما تجلت منك أدنى بلاغة تحرّ لك الأقلام في الطرس سجّداً
وفيك الندى والفضل قرت عيرنه ولم يكتحل إلا بخطك إثماً (١)

وما تراك قائلاً في مثل هذه الصور التي يستخدمها الاخرس في تمجيد ممدوحه :

من كل ابلج يزهو بهجة وسنا تخاله بضياء الصبح منتقبا
قد انفقوا في سبيل الله ما ملكوا واستسهلوا في طلاب العز ما صعبا
وقوله :

غرس ايديهم غرس الندى فاجتنت من ثمر الشكر لبابا
سحبت ذيل افتخار أمة لبسوا التقوى برودا وثيابا

(١) اقرأ قصيدة البحترى التي أولها :
اجرني من الواشي الذي جار واعتدى
تجد ان النفس واحد في كلتا القصيدتين .

وأعدوا للعلی سمر القنسا والرقاق البيض والخيل العربا
ينزل الوحي على أبياتهم فاسأل الآيات عنهم والكتبا
ولو مضيت في الاستشهاد بروائعه لضاقت بنا الصفحات ولضللنا القصد
فلنجزئ بما ذكرت ولنذكرن انها من بحره قطرة وفي ذخائره دُرّة . . .

ولا تحسبن وقد جلونا لك من محاسن الشاعر ماجلونا اننا ممتن يتعصب له أو يبلغ
به الاعجاب حداً يحيد به عن القصد . . . فان لنا مانؤاخذ به الشاعر ونحسبه عليه
وإن كنا ممن يعسر عليهم كل العسر ذكر الهنات وتقصي السقطات ولعمري فقد
قليل من قديم إن لكل جواد كبوة ولكل حدّ نبوة .

ان اهم ما يؤاخذ به الشاعر كونه اميل الى التقليد منه الى الابداع وهو مأخذ
خطير يدور عليه جوهر شعره .

فالأخرس تقليدي في اغراضه وصوره لا يكاد يخرج عن الاطار القديم قيد أنملة
على الرغم من ان اطاره هذا في الأغلب الأعمّ اطار بالغ من الروعة منتهاها ومن
الجمال غايته لانه اطار جمع بين الرضي والبحثري في وقت معا . . . !

ولنا أن نذكر بعد ذلك ان الشاعر كان ممن قد احترف الشعر وسخره أداة
للعيش فكان شاعر مدح، ومعنى ذلك ان الصنعة والافتعال سيطرتا على هذا الغرض
من شعره فافقدتاه روح الشعر فكان لفظاً مصنوعاً لا شعراً مطبوعاً . . . وقد تضطره
حرفته الى الاغراق في المبالغة لاسترضاء واستمالة ممدوحيه مبالغة ربما خرجت به
عن حدود المعقول أو تخطت به حدود الايمان الى الكفر . . . !

قسماً بمجدك وهو اعظم مقسم يستخدم التعظيم والتبجيلاً
أو كنت في الامم المواضي لم تكن الا نبيا فيهم ورسولاً
أو :

لقد جمع الله المحاسن كلها به فهو من بين العوالم مفرد
تفرد من بين الورى بجميله فما شك في توحيده اليوم ملحد
أو :

لم يلد مثل ابيهم والـد لم يلد قبل ولا من بعد يولد
وربما اخرجته حرفته هذه عن حد احترام نفسه الى امتيائها واهدار كرامتها

فتراه يقول لمندوحيه :

فداؤك عبد انت مالك رقه بأيدي كريم يستفاض نداها
فشكراً لما أوليت من نعمة بها توليت مالا من نذاك وجاها
ونحن نستثنى من شعر المديح هذا مدائحه الصادرة عن عاطفة حقيقية
ونخرجها بذلك من باب المديح الى باب الاخوانيات وهو باب جميل من ابواب
الشعر لانه يعكس مدى علاقة الشاعر باخوانه وقد جتود الشاعر في هذا الباب وبلغ
فيه الغاية ، فقد كان الشاعر ودودا لآخوانه وصولا لهم وفيأ باقياً على العهد رغم
اختلاف الزمان وتنكر الأيام . . . ولعل عينيته العصماء (١) التي بعث بها الى
الوالي داود باشا بعد نكبته وعزله أعلى شاهد وأجل دليل على وفاء الشاعر وهي تذكرني
بموقف البحترى من المتوكل على الله بعد مقتله ورثائه اياه برائيته العصماء آية
الآيات في الوفاء . . .

ان مدائح الأخرس احتلت الجانب الاكبر من ديوانه لانها كانت مصدر عيشه .
وهناك مدح روحاني للأخرس بلغ به الغاية فقد مدح الشيخ عبد القادر
الكيلاني ببائية رائعة تفيض ثقى وتنقلك الى الاجواء الروحانية التي تهيمن في
اثنائها . . .

فيا آل بيت الوحي دعوة ضارع	الى الله يدعو ربه ويحباب
مواردكم للحائمين كأنها	موارد من قطر الغمام عذاب
وهل يبتغي الظمآن من غير فضلكم	ورودا وماء الباخلين سراب
نعفر منا اوجهاً في صعيدكم	عليهن من صبغ المشيب نقاب
فلا دونكم للقاصدين مقاصد	ولا بعدكم للطالبيين طلاب
مفاتيح للجدوى مصايح للهدى	فايديكم في العالمين رغب
بكم يرزق الله العباد وفيكم	ينزل من رب السماء كتاب

(١) عينية الأخرس هذه من عيون الشعر اولها :

بوادي الغضا للمالكية اربع

وأما رائية البحترى فاولها :

محل على القاطول اخلق دائره

سقتها الحيا منا جفون وادمع

وعادت صروف الدهر جيشاً تغاوره

وانتم لنا في هذا الدار رحمة اذا مَسَّنَا فيها اذى وعذاب
ومن بعد هذا انتم شفعاؤنا اذا كانت الأخرى وحن حساب
وللشاعر اغراض أخرى لعل أهمها تلك التي تصف مجالس اللهو والانس حيث
تصطفق الكؤوس وتدور بها الندمان. وللشاعر خمريات وغلمانيات تذكر بأبي نواس
وهي التي حدث بالدكتور البصير ان يطلق على الشاعر لقب ابي نواس القرن التاسع
عشر لما فيها من صراحة في التحدث عن ساعات اللهو هذه حيث يُخلع العذار
ويُخرج عن الوقار ، والشاعر محسن في وصف هذه المجالس إحسانا كبيرا وهو
محسن كذلك في وصف مظاهر الطبيعة من حولها . . .

وتبرز الشكوى كغرض من اغراض الشاعر وشكواه مريرة عند تذكركنا بشكوى
استاذ الرضي لانها مثلها في المرارة والعمق :

ووجدني على هذا الزمان سفاهة	وعتبي على القوم اللئام سفاها
ولو كانت الايام تعقل ما أتت	إذا لنهاتها عقلها ونهاتها
اليك ابا محمود اشكو حوادثا	كثيرا على الحرّ الكريم اذاها
أمني بها النفس الاماني ضلّة	وتمنني من عودها وجناها
وتلسعني فيها أفاع قوارع	وما عرف الراقون كيف رقاها
ارى هذه الدنيا لمن ذلّ أصبحت	ذلولا وإن كان الأبى أباهها
تسمنها من كان من دون حقها	وكنا نراه تحتها فعلاها
وما بحت بالشكوى وفي بقية	من الصبر الا وانتهت وتناهى
ويقول :	

أسفاً على أيام عمر تنقصي	كدراً وتذهب بالمنى تأميلا
وبنات أفكار لنا عربية	لا يرتضين سوى الكرام بعولا
واذا نهضت الى التي انا طالب	في الدهر اقعدني الزمان خمولا
لا تعذليني يا اميم على النوى	فلقد عزمت عن العراق رحىلا
وتقاصرت همم الرجال وأصبحت	فيهم رياض الآملين محولا
تأبى المروءة أن أراني واقفا	في موقف يدع العزيز ذليلا
صبرا على هذا الزمان فانه	زمن يعدّ الفضل فيه فضولا

وقد تتمخض هذه الشكوى المريرة عن افتخار بالنفس او نقد لاذع لرجال الحكم .

ومن افتخار الشاعر بنفسه قوله :

لئن جهلتُ قدرِي اناسٌ فاني من الجهل مني أن اعرفها قدرِي
وكيف مقامي بين شر عصابة تساوت لديهم قيمة الصفر والتبر
واني لمجبول على الخير شيمة ولكنني قد ادفع الشر بالشر
وقال يصف كرامته وحسن صبره وأحسن :

تناولَ افنانَ الحصاصة وارتدى بفاضل ذيل الفخر يسحب طمره
جليدٌ على عسر الزمان ويسره وما ضره عسر الزمان ويسره
فلا البؤس والاقلال مما يسوؤه وليس ثراء المال مما يسره
ولم يتخرج الشاعر ان ينقد رجال الحكم بمثل هذا :
بلد كبار ملوكه بقر (١) صاروا ولاه النهي والامر
أو بقوله :

معذبتني من غير جرم يالومها وأعذب شيئاً في هواك أمره
أراك مني أن أقمت بموطن تجوع ضواريه وتشبع حمرة ؟
ولا ننسى قبل اختتام كلمتنا في شعر الأخرس ان نلاحظ عليه تكراره معانيه
ونثره بالاضافة الى وجود صور ومواضع قديمة وردت في الشعر العربي القديم
الى اسماء عرائس الشعر المتداولة منبثة خلل الديوان وكلها شواهد اتباع وتقليد . . .
هذا الى كون الديوان لم يخل من اخطاء نحوية ولغوية وعروضية (٢) كما لم يتتره
الديوان من بذاءة وفحش نصون قدسية البحث عن الاتيان بها (انظر ديوان
الأخرس ص ٢١) .

وقد عجز ديوان الأخرس ، اسوة بروح عصره ، بالتأريخ الشعري والتشطير
والتخميس وشعر المجازاة وهذه اغراض أنأى ما تكون عن روح الشعر فهي نظم
صراح وفيها ما فيها من تبذير للملكة الشعرية واهدار لكرامتها . . .

(١) يقول البحتري : علي نحت القوافي من مقاطعها وما علي اذا لم تفهم البقـ
(٢) نحوية ص ٢١٠ - لغوية ص ٤٠، ٤٣، ٤٤ عروضية ١٤، ١٥، ١٨ (زحاف)

هذه نظرات عنّت لي وأنا أجوس خلال ديوان الأخرس فأقرر بعدها بلا
تردد ان عبد الغفار الاخرس نقطة مضيئة في تأريخ شعرنا الحديث وانه بداية لنهضة
وجسر يشد طرفنا المجدد الى التليد المُخلّد .
والأخرس قطعاً « بارودي » العراق إذا صحت المقارنة وأصاب القياس .

« من بعض شعر الأخوس غير المنشور »

جاء في مخطوطة المجمع العلمي العراقي ٦١٤ - ق ٢/م على الورقة ٤٥٣ ظ هذه القصيدة ممهداً لها بما يلي :

وقال مؤرخاً ولادة ناصر بن قاسم باشا زهير باليمن والخير : (الكامل)
 بشرى بمولد نجلكم من مولدٍ من صُلْبٍ أكرم ماجدٍ ومُجَدِّ
 كالسيف أُصلت نصله من غمده فبدا نظير الكوكب المتوقد
 يُحيي مناقب من مضى من أهله من ناصرٍ حزبِ العلى ومؤيدٍ
 العاطسين بأنف كل أبيّة والمرعفين بها أنوف الحُسدِ
 والباسطين على العُفاة أيادياً كم من يدٍ بيضاء تولى من يدٍ
 لاتُنكر الاعداءُ معروفاً لهم بمكارم لأكارم لم تجحد
 حَدَّثُ ولا حَرَجٌ عليك بذكرهم وأعدُ حديثك ما استطعت ورددُ
 فليهنكم ولَدٌ بسدا وبوجهه سيماءُ سعد في الزمان الأسعد
 فالله يحفظه ويرفع قدره ويُدِمه في طيب عيش أرغد
 سُرَّت به النجباءُ وافتخرت به لازال في فخر عظيم السؤدد
 قد جاء تاريخي وقرَّ عيونهم بالناصر بن القاسم بن محمد

١٢٨٩ هـ

٤٥٣ ط : واتفق سنة مائتين وثلاثة (كذا) وسبعين بعد الألف أن اظلمت الدنيا
 في بغداد وذلك في اخريات النهار برمضان بصورة مخوفة فقال مؤرخاً : (الرجز)
 غُبِرَ وجهُ الجوّ في حُمرة كأنما تُوقَدُ بالجوّ نارُ
 واعقبتها ظلمة ايقنت انفسنا من أجلها بالبوار
 حتى عن الشمس وأضوائها بذلك التاريخ حال الغبار

جاء في مجلة المشرق مجلد ١١ ص ٧٧٩: «وما لم نجده في ديوانه تخميس لأبيات

قالها عبد الباقي العمري : في قاض جائر . . . » (الطويل)

الا قطع الرحمن كل مقاطع مضير بما يقضي به غير نافع

وراض بظلم طامع غير نافع وقاض بجور ماله من مضار

على انه بالعسف أقطع من ماض

فكم قد جنى في حكمه من جنابة وقد راح في غي له وغواية

فلا رد قاض إهتدى لهداية قضى ومضى اكن الى كل غاية

من الخزي لا يحظى بها أبداً قاض

بلينا بقاض جائر غير عادل يجور بحكم قاصر غير طائل

ومن اعظم البلوى بلاءً بجاهل يقولون يقضي قلت لكن بباطل

وقالوا يقص الحق قلت بمقراض

وجاء في مخطوطة المجموع العلمي العراقي المشار اليها اول الزيادات : (الخفيف)

أتري في الوجود مثلك عالم ؟ يرد الناس بحره المتلاطم

أنت من أشرف العوالم ذاتاً إنما هذه الرجال عوالم

أظهر الله فيك للناس سراً ما لذك السر الربوبي كاتم

ولك الله ما برحت صراطاً مستقيماً وعارضاً متراكم

كل ظامي على مناهل ما أوتيت من فضل ربك حاتم

تلقى الافهام منك وما تنطق إلا بالحق والحق ناجم

كلمات كأنهن سيوف أين من لفظك السيوف الصوارم !

ياقوام الدين الخفيف (١) والدين لعمري بمثل ذاتك قائم

إنما أنت رحمة الله في الارض على أمة لها الله راحم

أنت للحق واليقين صباح راح يجلو ليلاً من الشك فاحم

شهد الله إنها معجزات لم تسلم بالحق من لا يسلم

حجج تفحم المجادل بالباطل والجاحد الألد المخاصم

وضعت للورى موازين بالقس ط وفيها لزال دفع المظالم

طاولت هذه السماء بأيد قصرت دونها يدا كل ظالم

(١) كذا جاء في المخطوطة ولا يستقيم بها الوزن ولعل الصواب الخفيفي ، كما يرى الخطاط وليد الاعظمي ونرى

كتابخانه

مكتبة كتاب شناسي

١٣٨٤

قد رأينا وليالي صروف
لاتبالي إذا حكمت بأمر الله
أمر بالمعروف ناه عن المنكر
وإذا ما أمرت الله أمراً
لك جيد الكلام والكلم الطيب
نبهت من أردت من سنة الغفلة
رجع المجرم الذي اقترف الذنب
أعربت عن بلاغة لك أو
غردت ماجرت بأيديك في
نافثات وهي الجداول للفضل
إتبعنا بالحق ملة ابراهيم
واتخذناه قبله وإماما
أنت لاغيرك الإمام لقوم
نشروا ذكر ماطوته الليالي
كتبوا فوق جبهة الدهر أن
زهّدوا في الدني فما راقهم فيها
درّ درّ الندى أعاد اكفّا
بأبي سادة الأنعام جميعاً
من ليوث ضراغم وغيوث
قال منهم للمكرّمات قوّل
يتعدى جميل فعلهم الناس
طهر الله ذاتهم واصطفاهم
دايم الفخر خالد الذكر ماغير
وآرد شرعة العلوم التي
لم ينلها سواك نعمة مولى

قطبت وجهها وثمرك باسم
والعدل بالذي انت حاكم
أت بالحق ماضي العزائم
لست تخشى في الله لومة لائم
يؤتي كل امرئ ما يلائم
فاستقيظ الذي كان نائم
مُنيباً فيها واصبح نادم
لام فصاح الإعراب وهي اعاجم
الطرس شبيها تغريدها بالحمايم
بقلب العدى سموم الأراقم
حنيفاً والحق بالحق قايم
ومُشيد البيت الرفيع الدعائم
سلكوا في الندى سبيل المكارم
قبل هذا من عهد كعب وحاتم
الدهر عبد لهم رقيق وخادم
نفيس من الغنى والغنائم
من أناس أعدائهن الدراهم
وهداة الأنعام أبناء هاشم
وبجور سواهم وخضارم
هكذا هكذا تكون المكارم
وان كان ذلك الفعل لازم
قبل ما يُنتجون من صلب آدم
فخار لكم مدى الدهر دايم
ليس عليها إذا وردت مُزاحم
انت منها تحل طوق النعائم

طالما حثث النياق حثيثاً
 قد وفدنا على كريم اذا استجدي
 ووقفنا بموقف العلم والتدريس
 وشهدنا معالم المجد فيها
 ثم شِمننا برق المكارم قد
 ولثمنا يدي عظيم قريب
 كشفت غُمَّة النوايب عنا
 لم تزل تُتبع الجميل جميلاً
 هذه سيدي عريضة داعيك
 كلما اثبتت مديحك فيها
 أطلبُ العفو في مديحك
 فتقبلُ مني وما زال قِدماً
 بقوافٍ على عِداك عوادٍ

راغبٌ في بديع فضلك هائم
 جادت يمينه بالكرايم
 والفضل والندى والمكارم
 قد تعالت فيالها من معالم !
 لاح سناه من بين تلك المباسم
 من عظيم تعدُّه للعظام
 ثم نابت لنا مناب الغمام
 فهي إذ ذاك ساجم إثر ساجم
 وكانت عن الوداد تراجم
 كان اثباتها لمحو المآثم
 والغفران والصفح عن جميع الجرائم
 نائراً في مديحك العبدُ ناظم
 يافدُتك العدى ووجهك سالم

عائكة الخزرجي

اهم مصادر البحث

- أبو العلاء المعري شرح التنوير على سقط الزند مصر ١٣٥٨
الأخرس الطراز الانفس في شعر الأخرس (الديوان) ١٣٠٤
الاداب العربية في القرن التاسع عشر بيروت ط ٢ : ١٩٢٦
البحتري ديوان البحتري بيروت ١٩١١
جرجي زيدان مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر ط ٢ مصر ١٩١١
جلال الخياط الشعر العراقي الحديث بغداد ١٩٧٠
داود سلوم تطور الفكرة والاسلوب
ديوان الأخرس مخطوطة مصورة في المجمع العلمي العراقي على مايكروفيلم
للككتور يوسف عز الدين ٢٦٩ - ق ٢ / م
رضا وظاهر زين العراقيات صيدا ١٣٣١
الزركلي ط ٢ مجلد ٤ ص ١٥٧
سليمان صائغ الموصل تاريخ الموصل مصر ١٩٢٣
الشريف الرضي ديوان الشريف بيروت ١٣٠٩
عباس العزاوي مجموعة عبد الغفار الاخرس بغداد ١٩٤٩
عبد الكريم الدجيلي محاضرات عن الشعر العراقي الحديث ١٩٥٩
محمد مهدي البصير نهضة العراق الادبية في القرن التاسع عشر بغداد ١٩٤٦
محمود شكري الالوسي المسك الاذفر بغداد ١٩٣٠
المشرق مجلد ١١ ص ٧٧٩
يوسف سركيس معجم المطبوعات العربية والمصرية مصر ١٩٢٨
يوسف عز الدين مخطوطة شعر الأخرس بغداد ١٩٦٣
الشعر العراقي اهدافه وخصائصه بغداد ١٩٥٧

المخطوطات

- ١ - مخطوطة المجمع العلمي العراقي المرقمة ٦١٤ - ق ٢ / م
٢ - مخطوطة المجمع العلمي العراقي المرقمة ٦١٩
وهي قصيدة واحدة للأخرس في مدح علي باشا
٣ - مخطوطة مكتبة مديرية الأوقاف العامة بغداد رقم ٥٧٦٤